معالم منهج الدعوة الى الله:

خطاب الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم وأمره بالدعوة هو خطاب لأمته، فقد ختم الله تعالى الأديان بدين الإسلام وختم أنبياءه بنبينا صلى الله عليه وسلم وجعل دينه دينا للناس جميعا إلى قيام الساعة،وأناط مهمة الدعوة إليه وإلى أتباعه يُجَدِّدونه ويُذَكِّرون به ويحثون على اتباعه، والخطاب الإلهي صريح في ذلك يقول تعالى: "ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن" ومعلوم أن خطاب النبي هو خطاب لأمته ما لم يكن فيه استثناء, وليس في الأمر بالدعوة استثناء إذ هي أعظم ما جاءت به الرسالة وهي أسمى وظيفة يمكن للإنسان أن يقوم بها ( ) إذ لا شيء في الكون أسمى من التعرف الى الله وإخلاص العبادة والعبودية له،وإعمار الأرض بكل ما يحقق طاعته والفوز برضوانه وتجنب سخطه وعقوبة الانحراف عن سبيله،وفي موضع آخر يقول تعالى في خطاب صريح له ولأمته :" قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني" فكل من اتبع سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ورضي بالله تعالى ربا،وبالإسلام ديناً،وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولا مطالب بالدعوة الى كل ما آمن به ورضي به, وبهذا تكون الأمة مشاركة لنبيها في الدعوة الى الله وتحمّل أعباء تبليغ رسالته بعده, وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم :"إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين" ففي قوله صلى الله عليه وسلم ميسرين إشارة الى تخصيص الأمة بهذا الواجب بعد الرسول صلى الله عليه وسلم.

قال الصحابي الجليل ربعي بن عامر رضي الله عنه لرستم قائد جيوش الفرس :"إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة رب العباد, ومن ضيق الدنيا الى سعتها, ومن جور الأديان الى عدل الإسلام" فقد لخص رضي الله عنه في هذه الكلمات البليغة أهم أهداف هذا الدين ومقاصده،وهي أهداف ومقاصد سامية تحفظ للإنسان كرامته بكل ما تدل عليه الكرامة من معاني السمو.

ورسم القرآن لأتباعه معالم منهج الدعوة في آية واحدة يقول الحق سبحانه:" ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن" فالأمر

بالدعوة في الآية موجه لكل مسلم ومسلمة مما يعني وجوبه بحسب القدرة والاستطاعة، وأن الدعوة تكون الى الله لا الى غيره وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: "ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله " فلا تكون الدعوة الا الى الله و إلى ما شرعه لعباده من عقائد وأحكام وأخلاق وهذا ما عابه الإسلام على أهل الكتاب وأنكره عليهم بشدة في قوله سبحانه: "اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ".

فالإسلام جاء ليحرر البشر من عبودية بعضهم لبعض وربوبية بعضهم لبعض وأن يكونوا جميعا عبادا لله وحده الذي خلقهم وسخر لهم ما في السموات وما في الأرض جميعا ولهذا كانت رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم الى أهل الكتاب في زمانه مختومة بهذه الآية {يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله}.

ومن معالم هذا المنهج أن تكون الدعوة بأسلوبي الحكمة والموعظة الحسنة:

ـ أسلوب الحكمة:

المقصود بالحكمة مخاطبة العقول بكلام محكم مؤسس على أدلة وبراهين مقنعة تبين الحق وتدفع الباطل وترد المتشابهات الى المحكمات والظنيات الى القطعيات والجزئيات الى الكليات والفروع الى الأصول.

كما أن من الحكمة مخاطبة الناس بما يفهمون وما تستسيغه عقولهم لا بما يعجزون عن فهمه وهذا مراد علي بن أبي طالب رضي الله عنه بقوله: "حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتريدون أن يكذب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم"

ومن الحكمة أن تكلم الناس بلسانهم ليفهموا عنك ويتجاوبوا معك كما قال تعالى: "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم"، وليس المقصود باللسان هنا اللسان العام الذي يتخاطب به الناس فتخاطب الإنجليز بالإنجليزية والفرنسيين بالفرنسية... بل المراد فوق ذلك مراعاة مقتضيات الأحوال أعني مستويات الناس في الفهم والإدراك فنخاطب الخاصة بما يناسب الخاصة والعامة بما يناسب العامة

لأن المطلوب في الخطاب هنا تحصيل البيان والإفهام و بدونه لا يحصل الإدراك ومن ثم لا تحصل الاستجابة والامتثال.

ومن الحكمة أن نأخذ الناس بالرفق في تعليمهم فنأمرهم بما أمر به الإسلام برفق وننهاهم عما نهاهم عنه برفق، بل وينبغي أن نهيئ أنفسهم لتلقي الأمر والنهي قبل توجيهه اليهم بحيث نُعَرفهم بالإسلام أولا ونرغبهم فيه بذكر ما فيه من نفع وصلاح لهم ثم نأخذهم برفق للعمل بما تعلموه وهذا مقتضى قوله صلى الله عليه وسلم: "يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا" ولا ينبغي ان نكلفهم في ذلك ما لا يطيقون حتى لا ينفروا ويستثقلوا التكاليف، فلا نطلب منهم إلا بالقدر الذي يطيقون تشجيعا لهم على الإقبال والامتثال يقول صلى الله عليه وسلم :" إذا أمرتكم بأمر فاتوا به ما استطعتم " وبالتدرج يرقى الانسان في مدارج السالكين الى أن يتحقق فيه المطلوب.

ومن الحكمة أن نحسن ترتيب ما نأمر به وما ننهى عنه بحيث يأتي كل شيء في موضعه وفي مرتبته، فليس من الحكمة أن نقدم الفروع على الأصول أو نقدم النوافل على الفرائض أو نشدد في الجزئيات ونترك الكليات الضروريات.

وهذا يدل عليه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم لَمَّا بعث معاذا الى اليمن حيث قال له:" إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلهم فإذا فعلوا الصلاة فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم" فقدم الدعوة الى الأصول على الدعوة الى الفروع.

ومن مجانبة الحكمة التشديد في النوافل وقد أهمل الناس الفرائض, ومن القواعد العلمية الموروثة عن السلف أن الله لا يقبل النافلة حتى تُؤَدَى الفريضة, ومن ذلك الانشغال بالمختلف فيه وقد ضيع الناس المتفق عليه.

ومن الحكمة أيضا المطلوبة أن نراعي فقه الأولويات فنقدم في باب المأمورات العقائد على الأعمال والفرائض الركنية على ما سواها والواجبات على السنن والسنن المؤكدة على المستحبات، ونقدم في المنهيات محاربة الكفر على ما دونه ونقدم محاربة الكبائر على الصغائر والمحرمات على الشبهات وعلى المكروهات ونقدم المتفق عليه على المختلف فيه.

من الحكمة المطلوبة أيضا أن نأخذ الناس بالتدرج، والتدرج سنة كونية كما أنه سنة شرعية، سنة كونية نراها ما نراه في خلق الإنسان حيث يبدأ نطفة فعلقة فمضغة فعظاما مكسوة لحما ثم ينشئه الله تبارك وتعالى خلقا آخر ثم يخرج الدنيا وليدا فرضيعا ففطيما فصبيا فيافعا فشابا فكهلا وفي ذلك يقول الله تعالى: {والله خلقكم أطوارا}،

وهذا ما نراه أيضا في خلق النبات حيث يبدأ بذرة وينتقل من طور إلى طور إلى ان يصبح شجرة مثمرة وهو سنة شرعية ذلك أن الله تعالى أمر رسوله بإرساء العقائد وأصول الأخلاق أولا وهو ما نراه واضحا في القرآن المكي ثم أمره ببيان الفرائض المتعلقة بالعبادات متدرجا بالناس شيئا فشيئا بادئا بإقامة الصلوات التي فرضت قبل الهجرة ثم إيتاء الزكاة وصوم رمضان في السنة الثانية بعد الهجرة ثم بعد ذلك فرض الحج على من استطاع إليه سبيلا وكذلك بدأ بتحريم بعض المحرمات التي تعتبر من الرذائل الإنسانية المتفق عليها ومن أسباب الفساد والاضطراب في الحياة الإنسانية مثل قتل النفس وفاحشة الزنا وقتل الأولاد من إملاق واقع أو خشية إملاق متوقع وأكل مال اليتيم ونقض العهد والمشي في الأرض مرحا ونحو ذلك مما هو أقرب الى الجانب الأخلاقي منه الى الجانب التشريعي هكذا كانت دعوته صلى الله عليه وسلم في تبليغ كل ما أمر بتبليغه من أحكام العبادات والمعاملات, فمن الحكمة التي يجب أن يتحلى بها الدعاة في دعوتهم سلوك منهج التدرج في تعليم الناس والرفق بهم والتلطف والرحمة بهم والإشفاق عليهم كما وصف الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله :" فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ".

أسلوب الموعظة الحسنة:

إذا كانت الدعوة بالحكمة تخاطب العقول فتقنعها فإن الدعوة بالموعظة الحسنة تخاطب القلوب والعواطف فتثيرها وتحركها والإنسان ليس عقلا مجردا بل هو عقل وقلب معا إنه عقل يدرك ويفكر وقلب يحس ويشعر وعلينا أن نخاطب الجانبين فيه معا الجانب الذي يعي ويدرك ويحصل المعرفة والجانب الذي ينفعل ويريد ويحب ويكره ويرغب ويرهب. ووصف القرآن الموعظة بالحسنة وحسنها يكون باتصافها بأمور:

- اختيار الموضوع المناسب للمخاطب
- اختيار الأسلوب المناسب المؤثر
- التماس الوقت المناسب والمكان المناسب
- النفاذ الى أحاسيس الانسان وتحريك نوازع الخير فيه
- مراعاة ضعف الإنسان فلا نؤنبه حين يسقط أو نحرجه حين يعثر ويخطئ بل نجبر ضعفه ونفتح أمامه أبواب عفو الله ورحمته بعباده وقبوله التوبة منهم في كل حين
- اتخاذ منهج وسط في الترغيب والترهيب والترجية والتخويف فلا نخوف الناس حتى ييأسوا من روح الله فإنه :" لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون" ولا نبالغ في الرجاء حتى يأمن الناس من مكر الله :" فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون".

وليس من الموعظة الحسنة تهييج العامة وإثارة مشاعرهم وإلهاب عواطفهم في قضايا جزئية قد يستفيد منها بعض الناس ولكنها تضر الأمة في مجموعها ضررا بالغا.

وليس من الموعظة الحسنة ما يختم به بعض الخطباء خطبهم والدعاة دعوتهم, بالدعاء أن يهلك الله اليهود والنصارى جميعا وأن ييتم أطفالهم ويرمل نساءهم ويجعلهم وأموالهم وأولادهم غنيمة للمسلمين, مع أن في هؤلاء أقلية يعيشون في الدول الإسلامية لهم فيها حقوق المواطنة كسائر المسلمين؛ فهؤلاء لهم حقوق على الدولة المسلمة ولهم واجبات وإنما المناسب أن ندعو على اليهود الغاصبين المعتدين المحاربين وأن ندعو على الصليبيين الحاقدين الظالمين لا على كل اليهود والنصارى لأن منهم المواطن ومنهم المسالم ومنهم المستأمن .

حوار المخالفين بالتي هي أحسن:

من معالم المنهج الذي رسمه القرآن الكريم للدعوة الى الله تعالى الجدال بالتي هي أحسن ومن الملاحظ على التعبير القرآني المعجز في الآية أنه اكتفى في الموعظة بأن تكون حسنة ولكنه لم يكتف في الجدال إلا أن يكون بالتي هي أحسن لأن الموعظة تكون مع الموافقين أما الجدال فيكون مع المخالفين لذا وجب أن يكون بالتي هي أحسن, ومن ذلك أن يختار الداعي أرق العبارات

وأخف الأساليب في جداله مع المخالفين حتى يؤنسهم ويقربهم منه ولا يوغر صدورهم أو يثير عصبيتهم أو يستنزلهم عن كبريائهم.

فمن صور الجدال القرآني للكفار بالتي هي أحسن :" قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون " لم يقل لهم إنكم في ضلال مبين ولا إنكم مجرمون وما تعملون من الإجرام تأليفا لقلوبهم وتهييئهم لقبول الحق والإذعان له.

من الجدال بالتي هي أحسن التركيز على الجوامع المشتركة بين المتحاورين لا على نقاط الاختلاف والتمايز بينهما, لإيجاد أرضية مشتركة يمكن التأسيس عليها في اقناع المدعوين ومن ذلك ما ذكره القرآن في جدال أهل الكتاب " ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون " فالقدر المشترك هو العقائد فينبغي التأسيس على هذا المشترك لحل المختلف فيه وبيان الحق الذي مع المسلمين فيه .

فمن أدبيات الحوار كما رسمها سيد قطب رحمه الله :" أن يكون حوارا رقيقا رفيقا بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح, حتى يطمئن الى الداعي ويشعر أن هدفه ليس هو الغلبة في الجدل ولكن الإقناع والوصول الى الحق. فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه الا بالرفق حتى لا تشعر بالهزيمة, وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها هي عند الناس فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلا عن هيبتها واحترامها وكيانها.

والجدل بالحسنى هو الذي يخفف من هذه الكبرياء الحساسة ويشعر المجادل أن ذاته مصونة وقيمته كريمة وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها والاهتداء اليها في سبيل الله، لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأي الآخر".